

متاعب الرجل الشرييف في المجتمع

بِقَلْمِ

أبرهام كولي Abraham Cowley

١٦٦٧ - ١٦١٨

[من الكتاب الأولين بعد عودة النظام الملكي إلى إنجلترا . درس في جامعتي كمبردج وأكسفورد ، وكان من أشد أنصار الملكية . وفي هذا العهد كان النثر الإنجليزي يتتطور من صورته القديمة المعقدة ، وأسلوبه المتقل بالمحسنات ، إلى صورته الحاضرة التي جعلته صالحة لأداء أغراض الحياة . وكان كولي شاعرا وناثرا ، كتب شعرا باللغتين اللاتينية والإنجليزية ، غير أن شعره لا يعني به كثيرا في هذه الأيام ، وإن كان الكثير منه جيدا . أما مقالاته فلن النوع الجيد المطرب الخالي من التكلف والإغراق ، وقد وصفه تشارلس لام بقوله : « إنني أحب مقالاته وأفضلها حتى عن مقالات أدسن »] .

٤

إذا كان عشرون ألف أمريكي أعزل قد عجزوا عن صد هجمات عشرين إسبانيا مددجين بالسلاح ، فهل في وسع رجل شريف واحد أن يتقى أذى عشرين ألف رجل خسيس ، مسلحين من قمة الرأس إلى أخمص القدم بسلاح الدفاع في هذا العالم ، سلاح الذكاء والفتنة ، وسلاح الهجوم فيه وهو سلاح الحقد والختل ؟ وإذا أضطرر هذا الرجل الشريف أن يكون دائم

الاتصال بالناس ، فما أشد ما يلقى من العنف منهم ؟ وليس في وسعي لهذا السبب إلا أن أسدى إليه النصح أن يربأ بنفسه من هذه الساعة عن النزول إلى الميدان المكشوف ، بل عليه أن ينسحب منه ويستد جمیع السبل على هؤلاء الأعداء الكثیرین ، ولا يدع لهم ثغرة ينفذون منها إليه . والحق أن الرجل ذا الأعمال الكثيرة إذا لم يكن غشاشا محتاها ، كان في نظر العالم أبله ، عديم الفطنة ، وتخذه الناس سخرية لهم . ولو كان كل ما يصييبه من الأذى أن يسخر الناس منه لاستطاع أن يشار لنفسه بالسخرية منهم ؛ ولكن الأذى أشد ، لأن أولئك التمديين الذين يأكلون لحم إخوانهم من بني الإنسان يفعلون ما يفعله أكلة اللحوم البشرية من المتواشين ، فيرقصون حول فريسيتهم قبل أن يلتهموها . فالرجل الذي لا يتعاطى الخمر مثلا لا يسهل عليه أن ينجو من أذى السكارى ، وإن كانوا فيما بينهم ظرفاء مرحين ، فإذا ماساقته الأقدار إلى يسيتهم لقى منهم أشد الأذى ، بل تعرض للخطر الشديد . فهل تعجب بعد هذا إذا فضل الرجل الشريف الوحدة ولم يجد سبيلا للنجاة غير هذه السبيل ؟ .

وإذا ما اعتزل الإنسان الناس وهو في وسطهم لقى من العنف أشد مما يلقاه إذا ابتعد عنهم ، فهم من حوله وحوش كاسرة ، منهم كلاب متملقة متذلة ، ومنهم آساد زائرة ، وثعالب ماكرة ، وذئاب خاطفة ، ونسور شرهة ضاربة . وإنى لأعتقد أن أكثر الأمم مدنية هي أكثرها في نظر الناس همجية ، وأن من أكلة اللحوم البشرية من لا يخلو طباعهم من الاعتدال ولن العاطفة ؛ فهم لا يأكلون إلا أعداءهم . أما نحن الأوروبيين ذوى العلم والأدب فإننا كوحوش السمك نفترس كل مانسة طبيع أن نبتلعه ..

يفخر العلم وتفخر الفلسفة بأنهما قد جمعا الناس بعد أن كانوا متفرقين ، فآلفوا منهم الأم والشعوب ، ثم شيد الناس الدور وأنشئوا المدائن . الاليت العلم والفلسفة يستطيعان أن ينقضوا ما عملا ، ويهدما ما بنيا ، لكن تعود إلينا من جديد غابانا وطهارتنا ، فتنقسم بدل بها قصورنا الفخمة ومدائننا العظيمة . لستنا ننكر أن العلم والفلسفة قد حشدنا مئات الآلاف من الناس في صعيد واحد ، ولكنهما قد جمعا هم ليغش بعضهم بعضا ، ويقتل بعضهم بعضا . لقد كانوا قبل العلم والفلسفة يصيدون وحش الغاب ، وسمك البحر ، وطير السماء ، فأصبحوا بفضل العلم والفلسفة يصيدون إخوانهم من بني الإنسان ؟ والعلم والفلسفة يباهيان بأنهما قد أقرأو يبنهم السلم ، والحقيقة أنهما قد علماهم فنون الحرب . نعم إنهم قد سَنَّا لهم شرائع صالحة لکبح جاح الرذيلة ، ولكنها اللذان أخرجا لهم من قبل شيطان الرذيلة ، ثم أخذوا يحاولان بعد ذلك عبثاً أن يتراضياه ويُقيِّداه . ولست أنكر أنه لم يكن في بداية العالم عقاب على الشر ولكن الناس في ذلك الوقت لم يكونوا يرتكبون إلا القليل منه ، لأنهم لم يكونوا يجهرون من وراءه خيرا . على أن الذين يعتقدون الفلسفة لهذا السبب مخدوعون ، لأن الفلسفة لم يكن من عملها في يوم من الأيام أن تجتمع الجماهير المشتتة ، وكل مافعلته أن نظمتها وسيطرت عليها بعد أن تجمعت ، وعلمتها كيف تجني من الشر أحسن ما يمكن أن تجنيه من الفوائد . ولقد كان الطمع وحب المال وحدهما الدعامتين اللتين شيدتا عليهما المدن وقامت عليهما الدول . فإذا كان منشأ رومة حاضرة العالم القديم بأسره ؟ هل كانت أكثر من ملتقى جماعة من المتصوص وملجأ للمجرمين ؟ ألم يحتم في جوها عند بناؤها اثنتا عشر نسراً

كسرًا؟ لم يرق بانيها على جدرانها دم أخيه؟ ولعل هذه الخطية الأولى قد ارتكبت في المدن التي قامت على وجه الأرض ولا تزال ترتكب فيها إلى اليوم، وكلما كثُر أهلها زادوا إثْمًا على إِعْنَمْ ، لأن كل من جاءها حمل إليها نصيبه من الداء ليزيده استفحالاً حتى يستعصي على الشفاء ويصبح لا نجاة منه إلا بالخروج من جهنه . ولو أننا استطعنا أن نجد دواء شافياً لـكل ماعساه أن ينشأ في مدنا من أدوات ، ولو أننا كنا دائمًا مسلحين مسقدين لصد هجمات الأعداء ومقاومة الخونة المارقين ، لما أصبحت هذه الحياة المروعة مع ذلك حياة أمن واطمئنان ؟ ولكن مثلنا في هذا كمثل آباءنا الأولين الذين كانوا يحيطون أنفسهم بالنار ليتقوا بها هجمات الوحوش ، فكان همهم على الدوام أن يراقبوا النار حتى لا يخمد أوراها ، وكانت خشيتهم من التهاون في الحراسة خشيتهم من حرّكات العدو المهاجم . كذلك ترى الرجل الفاضل معرضًا لأن يطأه بأقدامه من ليسوا على شاكلته ، وهم لعمري كثيرون ، هذا إذا لم يصبه ما هو شر من ذلك وأعظم خطرًا عليه ، وهو أن يبدلوه أخلاقه ويفسدوه . ولا سبيل له إلى النجاة من هذين الشررين إلا بالحرص الدائم والحذر الشديد . ومن شأن هذا الحرص وذلك الحذر أن يفسدا عليه راحته وهدوء باله ، أى أن يقضيا على سعادته . هذا ما يخسره الرجل الشرييف في هذا المجتمع ، فانظر إذاً أى خير يصبه منه ؟ إنه كالرجل العريان ينزل إلى الماء ليصيد السمك . إن في وسع هذا الرجل أن يسبح في الماء ، ولكنه عاجز عن الصيد ، بل أكبر الظن أن السمك نفسه سوف يتهمه ، لأنه لم يعد له عدته من الشراك ومن الخداع ؛ ولهذا أعتقد

أن النصيحة التي أسدتها مارشال ^(١) Fabius Martial إلى فابيوس حين قدم هذا إلى روما كانت نصيحة صديق مخلص حكيم :

« أيها الرجل الشريف المسكين ، المخلص في قوله وفي تفكيره ، أي شيء جئت به إلى هذه المدينة ؟ إنك لن تستطع أن تكون ماجنا مهرجا ، ولا قواداً خسيسا ، ولا أن تخدع الأطهار بالألفاظ الكاذبة المسولة ، أو تفسد الأزواج المحصنات ، أو تحصل بجده وكيده على ما يقيم أودك ويحفظ عليك حياتك ، وإنك لتعجز عن أن تسلب الناس أموالهم بالوعود الكاذبة والمشروبات الزائفة الباطلة ، أو أن ترشو العظام وتنملقهم ، بل أنت رجل عالم عادل حكيم ، ثابت قوى شجاع أمين ، إنك لن تستطع أن تعيش في هذه المدينة إلا إذا ابتعدت عن الناس لتأمن شرهم وحسدهم ، نغير لك إذاً أن تعود من حيث أتيت ، وتقضى بقية أيامك حيث كنت ». .

وإذا لم يصل الأمر إلى هذا الحد ، ولم يتطلب المجتمع هذا كله ، فإن منظر القذارة والدناءة مما يعاشه الرجل الظاهر النقي ، ومرأى الحق والفسوق مما يغضبه له الرجل العاقل النقي .

ولقد دفعوني صحبة الناس مرتين أو ثلاث مرات إلى دخول مستشفى

(١) ماركس فلريس مارشال Marcus Valerius Martial (٣٨) ٤١٠ ب . م) شاعر لاتيني ولد في إسبانيا ولكنه قضى معظم حياته في روما .

(٢) فابيوس : اسم لعدد كبير من القواد والساسة الرومان أبناء أسرة عريقة في الجند من الأسر الرومانية القديمة ، عاشت في روما من بداية القرن الخامس قبل الميلاد ، ومنهم قاهر هنريخ القائد القرطاجي العظيم ، ولعله هو الذي يُسدى إليه مارشال هذه النصيحة وإن لم يكن معاصرًا له .

الأمراض العقلية ، ورأيت ابتهاج الناس حين يرون ما يأتهه المجانين من أعمال شادة غريبة ؟ أما أنا فقد كان لهذه الأعمال في نفسي أثر غير هذا ؟ كفت أعود من بينهم مكتئباً حزيناً مما أرى وأسمع ، وقد زاد عطفى عليهم بعد وجودى بينهم ، مع أنى أقابل فى طريق آلافا من مرضى العقول من غير أن تضطرب لرؤيتهم نفسى ، وإن كنت أعتقد أن الذين حرموا نعمة العقل كلها أقل بؤساً من الذين فسّدت عقولهم وضلت سواء السبيل . وإن الذى يزن السعادة البشرية ، والثروة والشرف والجمال ، بل العقل نفسه ، بالميزان الصحيح ، ليرى أن من يسىء استخدام هذه النعم أحق بالرثاء من حرم منها .

وقصارى القول أن الرجل العاقل ، وإن استطاع أن يغضى سالماً آمناً بـى سبيل الحيـاة ، يلاقى على الدوام ما يثير فيه الأسى والحزن ، والخجل والغضب ، والحدق والسطح ، وغيرها من الانفعالات ما عدا الحسد (لأنه لن يجد في العالم ما هو جدير أن يحسد) ؛ ومن أجل هذا كان من الخير له أن يعتزل الناس ويتنكب طريقهم ، حتى لا تصل إلى آذانه أنباء فعال بـى جنسه . ولكن أين المفر ؟ أيـفر إلى الصحراء كما كان يفعل الناسـاك الـقـدـامـى ؟

إنـى ليـخـيـلـ إـلـىـ أنـ النـاسـ كـلـهـمـ قدـ أـقـسـمـواـ عـلـىـ أـلـاـ يـتـرـكـواـ شـرـاـ إـلـاـ ظـرـكـبـوهـ ، وـأـتـهـمـ جـمـيعـاـ قدـ باـعـواـ أـنـفـسـهـمـ إـلـىـ الـخـطـيـئةـ ، لـاـ فـرـقـ بـيـنـهـمـ فـيـ هـذـاـ إـلـاـ أـنـ بـعـضـهـمـ كـانـواـ أـدـهـىـ قـلـيلـاـ مـنـ الـبعـضـ الـآـخـرـ ، وـأـقـدـرـ عـلـىـ الـمـاـوـمـةـ . وـلـقـدـ ظـنـنـتـ حـيـنـ ذـهـبـتـ لـأـوـلـ مـرـةـ لـأـسـكـنـ الـرـيفـ أـنـىـ سـأـجـدـ فـيـهـ تـلـكـ السـذـاجـةـ الـتـىـ يـتـغـنـىـ بـهـ شـعـرـاءـ الـعـصـرـ الـذـهـبـيـ الـقـدـامـىـ ، وـحـسـبـتـ أـنـىـ لـنـ أـقـىـ

فيه إلا أمثال الرعاعة الذين وصفهم السير فلب سيدني^(١) Sir Philip Sydney في أركاديا Arcadia ، وأخذت أفكار في الطريقة التي أصور بها للأجيال القبلة ما أنا واجد فيه من السعادة والطهارة . ولكن سرعان ما خاب ظني إذ تبيّنت أنني ، وإن تركت العاصمة ، ما زلت في إنجلترا ولست في أركاديا ، وأنني إذا كنت أبحث عن صدق القول ونقاء السريرة فإنني لن أجدهما في الريف ، لأن الريف خال منهما خلو بلاط الملوك أو سوق المال . وإذا كانت هذه هي الحال فإن المفروض ما العمل ؟ إن الدنيا لتعترض طريق الإنسان حتى لا يجد له مفرأً من أن يصافحها ، فليفعل ذلك إن استطاع ، ولكن ليحذر أن يجري وراءها ، أو أن يذل نفسه لها ؛ وإذا ما أوجبت عليه دواعي عمله المشروع ، أو ألمته الضرورة ، أن يوفق بيته وبينها ، فليجعل نفسه السيد المسيطر عليها لا العبد الخاضع لها . وما أسعده من يستطيع النجاة بنفسه من هذه الغانية الغاوية المخادعة ، فلا يفر من ضجيج العاصمة وصخبها فحسب ، بل يباعد بيته وبين كل بلد كبير أو صغير .

(١) سير فيليب سيدني Sir Philip Sidney ١٥٥٤ — ١٥٨٦ شاعر وكاتب وجندى وسياسي إنجليزى شهير ، كان يعد فى أيامه مثلاً أعلى للرجل الكامل المهدب يشتهر فى الأدب بروايته المسماة أركاديا Arcadia وهى وصف ممتع لحياة الرعاعة ، وقد كتبت قبل أيامه وبعدها عدة روايات من نوعها وسميت بهذا الاسم نفسه .